Telegram:@mbooks90

# تشيماماندا نغوزي أديتشي

# تدوينات عن الحزن

ترجمة فهد الطاسان

في ذكرى

جيمس نويي أديتشي

2020-1932

# 1

يُجري أخي من إنجلترا اتصالًا عبر تطبيق **زووم** كلّ يوم أحد. ذاك هو طقسنا الثابت في الحجر: اثنان من إخوتنا ينضمّان من **لاغوس**، وثلاثة منّا من الولايات المتحدة، ووالديّ -بين صدى الصوت حينًا وتقطّعه أحيانًا- من **آبا**، مدينة أسلافنا في جنوب نيجيريا. في السابع من يونيو، كان أبي على الجهة الأخرى، جبهته فقط بارزة عبر الشاشة -كالعادة- لأنّه لم يكن يُجيد التحكّم بهاتفه خلال مكالمات الفيديو. وفي كل مكالمة ينبري أحدنا ليخبره: «بابا، حرّك هاتفك قليلا». اعتاد أبي أوّلًا ممازحة أخي **أوكي** بأحد ألقابه الشهيرة، ثم يقول لنا إنّه لم يتناول العشاء لأنهم تناولوا الغذاء متأخّرًا، ثم يحكي عن بليونيرٍ جاء من المدينة المجاورة للمطالبة بقرية أسلافنا. كان واهنًا، لا ينام جيدًا، لكنّنا لم نقلق عليه. في الثامن من يونيو ذهب أوكي إلى آبا لرؤيته، وأخبرنا بأنه مُتعب. في التاسع من يونيو، جعلتُ محادثتنا مختصرة لكي يرتاح. ضحكَ في هدوء حين قلّدتُ أحد أقاربنا. قال تصبحين على خير ka chi fo. تلك كلماته الأخيرة لي. ففي العاشر من يونيو مات أبي. اتصل بي أخي **تشاكس** ليخبرني الأمر، وأصبح بعد ذلك مُحطّمة.

# 2

أخبرتني ابنتي ذات الأربع سنوات أنني أخفتُها. جثت على ركبتيها لتشرح لي، قبضتاها المشدودتان ترتفعان ثم تنخفضان مرارًا لتضرب الأرض. مُحاوِلةً محاكاتي، جعلتني أرى نفسي كما كنت: مفكّكةً تماما، أصرخ وأضرب الأرض. اجتثني الخبر بوحشية من جذوري. أُنتزعت من العالم الذي عرفته منذ طفولتي. رُحت أقاوم الخبر: قرأ أبي الصحيفة ذاك المساء، ومازح أوكي بأنه سيحلق ذقنه قبل موعده مع طبيب الكِلى في **أونتيشا** يوم غد، وناقش نتائج فحصه الطبيّ مع شقيقتي **إيجيوما**، وهي طبيبة... فكيف لهذا أن يحدث؟ لكن، هذا ما حدث بالفعل. يرفع أوكي الهاتف مقابل وجه أبي، الذي يبدو نائمًا. كان وجهه هادئًا، مُسالمًا وجميلًا. تخطّت مكالمتنا عبر زووم حدود السريالية: كلّنا بكى، وبكى وبكى، بكيناه من مناطق مختلفة حول العالم. ننظر دون يقين إلى الأب الذي نعشق؛ راقدًا هذه اللحظة على سرير مستشفى. وقع ذلك قبل منتصف الليل بدقائق، بتوقيت نيجيريا، كان أوكي بجانبه وتشاكس على مُكبّر الهاتف. حدّقتُ طويلًا في أبي. شقّت عليّ أنفاسي. هل هذا ما تعنيه الصّدمة؛ أن يستحيل الهواءُ غراءً؟ أخبرتنا أختي **أوشي** بأنّها بعثت رسالة نصيّة إلى صديق للعائلة، فكدت أصرخ؛ «لا! لا تخبروا أحدا، لو أخبرنا الناس سيغدو الأمر حقيقة!». ردّد عليّ زوجي «تنفّسي ببطء، اشربي هذا الماء». مِعطف المنزل ولباسي المعتاد في الحجْر مُكوّمان على الأرض. لاحقًا، مازحني أخي «مِن الأفضل ألّا تتلقّي أخبارًا صادمة في مكان عام؛ ما دمت تتلقّينها بتمزيق ثيابك!».

Telegram:@mbooks90


٢٧٠٥٨١٨٦٥٨

# 3

الحزن أكثر طُرُق التعليم قسوة. تتعلّم أنّ الحِداد قاسٍ، وينضح بالغضب. تتعلّم الاستماع إلى التعازي بسلاسة. تتعلّم كيف أنّ الحزن مُتعلّقٌ باللغة؛ بفشلها ومحاولة فهمها. لِمَ جانبيّ ممتلئان بالألم والوجع؟ هذا بسبب البكاء؛ كما قيل لي. لم أعلم أننّا نبكي بعضلاتنا. لم يكن الألم مفاجئا، لكن المفاجأة أنه جسديّ: مرارة لساني ليست مُحتملة، كما لو أنني تناولت وجبة كريهة ونسيت تنظيف أسناني. صدري ممتلئٌ بإحساس ثقيل وشنيع. في داخلي شعور بالذوبان الأبديّ. قلبي -الحقيقي؛ فلا شيء مجازيّ هنا- يجري مُبتعدًا عنّي، كما لو باتَ شيئًا منفصلًا، ينبض نبضًا فائق السرعة، وإيقاعاته متعارضةٌ مع إيقاعي. هذه المحنة ليست للروح فقط، بل للجسد، للآلام، وتثاقل القوى. اللحم، والعظام، والأعضاء كلها مهدّدة. لا وضعيّة مُريحة للجسد. مرّت أسابيع كانت معدتي فيها مضطربة، متوترة ومشدودة، كأنّ اضطرابها نذير شؤم. اليقين الوحيد أنّ أحدًا آخر سيموت قريبا، أنّ هناك خسارة قادمة. هاتفني أوكي صباحًا ما، أبكر من الوقت المُعتاد، قلت له: فقط أخبرني مَن مات الآن، أمّي؟

# 4

أحبّ الاستماع إلى الإذاعة الوطنية في بيتي الأمريكي، لإشاعة ضوضاء خافتة في الخلفية، وحين يزورني أبي فإنّه يغلقها إن لم يجد أحدًا يستمع إليها. تذكّرت هذا مع أوكي وضحكنا. أخبرته «تذكّرت كيف كان أبي يغلق الإذاعة دائما، وأعيدُ تشغيلها كلّ مرة. ربما ظنّ ذلك إسرافًا منّي». ردّ عليّ «لطالما أراد إطفاء المولّد مبكّرًا في آبا. سأسمح له بذلك في سعادة، لو أنّه يعود وحسب» وضحكنا. وقلت «سأصحو مبكرًا، وأتناول «الغاري» أوّلًا، وأذهب إلى القُدّاس كلّ أحد» وضحكنا. وأعدْتُ قصّة زيارة والديّ لشقتي خلال دراستي العُليا في جامعة يال، حين قلت «أبي، هل تريد عصير الرمان؟»، فقال «لا، شكرا، أيًا كان هذا». أصبح عصير الرمان مُزحةً قائمة. كتلك المزحات التي نتداولها بيننا مِرارًا وتكرارًا. كانت تعبيرات وجه أبي جامدةً تماما، وأحيانا واضحة ومشرقة بالضحكات. اكتشافٌ آخر: الضحك جزءٌ من الحزن. الضحك مرتبط بلغة عائلتنا، والآن نضحك ونحن نتذكر أبي، لكن في الخلفية تلوح غشاوةٌ من عدم الرضى. ثم تزول آثار الضحك. تتحول إلى دموع، ثم حزن، ثم غضب. أنا لست مُستعدّة للبؤس، ولا لصخب الغضب. أنا دون خبرة أو مُقوّمات في مواجهة هذا الجحيم من الأسى. لكن كيف له أن يُمازحنا ويضحك معنا في الصباح، وإذا به يرحل في المساء إلى الأبد؟ جرى الأمر سريعًا، سريعًا جدا. لا يُفترض أن يحدث الأمر هكذا، على حين غِرّة، ليس خلال وباءٍ أوصد العالم.

تحدّثنا معًا عن غرابة الأوضاع خلال الحظر، كم هي مخيفة، وطلب مني ألاّ أقلق بشأن سلامة زوجي، الطبيب. سألته مرّة "هل تشرب ماءً دافئا؟" كنت متعجّبة وأضحك إذ إنّه أخبرني قبلها، بمرحٍ مرتبك، أنه قرأ في مكانٍ ما أنّ شرب الماء الدافئ يُسهم في الوقاية من فايروس كورونا. ضحك على نفسه وتابَع بأنّ الماء الدافئ ليس مُضرًّا على أيّة

حال، لم يكن مثل هٰؤلاء أن تستحمّ بالأملاح قبل شروق الشمس، الذي انتشر بسبب الرعب من فايروس إيبولا. كان يجيب على سؤالي «كيف حالك أبي؟» بالإجابة نفسها كلّ مرة: لا أواجه أيّ مشكلة على الإطلاق Enweom nsogbu chacha. وقد كان بخير فعلًا. إلى حين لم يكن.

# 5

تدفّقت رسائل العزاء إليّ فيما أنظر وعيناي تعانيان غشاوة: لمَن هذه الرسالة؟ إحداها تقول «عن فقد والدك»، والد مَن؟ بعثت إليّ أختي رسالةً تلقّتها من صديق؛ يقول فيها إنّ أبي كان متواضعًا إزاء إنجازاته الكبيرة. راحت أصابعي ترتعش ورميت الهاتف بعيدًا عنّي. لا يجدر الحديث عن هذه الصفة في زمنٍ ماضٍ، لأنّ هذه الصفة باقيةٌ فيه. هناك فيديو يُصوّر أعدادًا غفيرةً من البشر يقصدون منزلنا في مجبالو لتقديم العزاء. أردت الوصول إليهم ودفعهم بعيدًا عن غرفة معيشتنا، حيث كانت أمي مُستقرّةً على الأريكة في وضعية الأرملة المُسالمة، وأمامها طاولة كأنها حاجزٌ للحفاظ على التباعد الاجتماعي. الأصدقاء والأقارب يقولون ما يجب فعله وما لا يجب. سِجِلّ العزاء يجب وضعه على مقربةٍ من الباب الرئيسي، لذلك اشترت أختي مفرشًا من الدانتيل الأبيض لتغطية الطاولة، واشترى أخي دفترا أبيض ذا غلاف مُقوّى، ثم شرع الناس ينحنون للكتابة في السجل. ذاك كلّه يحدث فيما أفكّر: اذهبوا إلى منازلكم! لمَ أنتم هنا تكتبون في هذا الدفتر الغريب؟ كيف تجرؤون على جَعلِ الأمر حقيقة؟! بطريقةٍ ما؛ أصبح أولئك المُعزّون ذوو الأمنيات الطيّبة متواطئين. أجد نفسي تتنفّس هواءً ممزوجًا بالسعادة والألم معًا في مواجهة مؤامراتي الداخلية. وخزٌ من الاستياء نهشني فيما أنظر إلى مَن تجاوزوا الثامنة والثمانين من أعمارهم، كانوا أسَنّ من أبي، وعاشوا دون شكوى من شيء. أخافني غضبي، أخافني خوفي، ولم يغب الخجل أبدًا. لمَ أشعر بالغضب والخوف؟ أخاف النومَ والاستيقاظ منه، أخاف الغد، ومن كل «غدٍ» آتٍ بعد هذا. أنا ممتلئة بإنكارٍ عجيب، إلى حدٍّ أظنّ عنده بأنّ رجل البريد سيحضر كالمعتاد، وأنّ أحدهم سيدعوني للتحدّث في مكانٍ ما، وأنّ تنبيهات الأخبار ستظهر على شاشة هاتفي. كيف للعالم أن يمضي، يشهق ويزفر دون توقّف، فيما روحي بعثرةٌ أبديّة؟

# 6

يجبرني الحزن على ارتداء جلودٍ جديدة، وكشْط القشور التي غطّت عيني. أندم على قناعاتي في الماضي: يجب عليك الحِداد، والتحدث خلاله، ومواجهته، وتجاوزه. تلك قناعات متعجرفة لشخصٍ لا يخبُر الحزن. قد حزنت في الماضي، لكنني للتوّ ألمس جوهر الحزن. الآن فقط تعلّمت، من شعوري بحوافّه البارزة؛ أنّه لا سبيل للتغلّب عليه. أنا وسط هذا الإعصار، مُلاحِظة فقط، بلا حَوْلٍ ولا قوة. أصبحت أصنع صناديق، وأحبس أفكاري بين ألواحها المتينة. أغلق عقلي، وأسمح للأفكار السطحية بالعبور. لا أستطيع التفكير كثيرًا، لا أجرؤ على التفكير بعمق، وإلاّ سأهزَم، ليس على يد الألم وحده، بل بالغرق في العدميّة أيضًا. دائرة من التفكير في سؤال «ما هي الفائدة؟»، لا جدوى من أيّ شيء. أريد جدوى ما، حتى لو لم أدركها الآن. ما هي تلك الجدوى. «هناك نعمةٌ في الإنكار»، كنت أردّد لنفسي هذه العبارة التي قالها أخي تشاكس. الإنكار ملجأ يقي من النظر. بالطبع، هذا الجهد في الإنكار هو حزنه الخاص، ولهذا فأنا لا أنظر في مَيَلان الظّل، لكنّي أتخيل كارثية التحديق الثابت. غالبًا، أيضًا، هناك الإلحاح على الجري والجري، ثم الاختباء. لكنني لا أستطيع الجري دائما، وكلّما أُجبرت على مواجهة حزني مواجهةً مباشرة -حين أقرأ شهادة الوفاة مثلًا، أو أكتب مسودة خبر النّعي-أشعر بذُعرٍ وامِض. في أوقاتٍ كهذه، ألاحظ ردّة فعلٍ غريبة من جسدي: تصيبه رجفة، أصابعي تنقر الأسطح بسببها دون تحكّم، وساقي ترتفع وتهبط. لا أستطيع تهدئة نفسي دون النظر بعيدًا. كيف يمارس البشر حياتهم في العالم بعد فَقْد أبٍ حبيب؟ للمرّة الأولى في حياتي أجد نفسي مُولعةً بالحبوب المُنوّمة، وفي منتصف الاستحمام أو تناوُل وجبة؛ أنفجر باكيةً.

# 7

سأبقى حذرةً من تفضيل أيّ شيءٍ للأبد: العاشر من يونيو 2020 هو أسوأ يومٍ في حياتي. هناك ما يُسمّى أسوأ يومٍ في الحياة، وأرجوك أيّها الكَون، لا أريد أن يتفوّق في السُّوء أيُّ شيء على ذلك اليوم. قبل أسبوع من هذا التاريخ، بينما ابنتي وأنا كنّا نلهو ونركض، أصبتُ بارتجاجٍ بعد سقوطي وارتطام رأسي بالأرض. شعرتُ بعدم التوازن أيّامًا عدّة، وأمسيتُ حسّاسة تجاه الأضواء والأصوات. لم أكن أُهاتف والديّ يوميًا، لكنني حين اتّصلت بهم أخيرًا، أراد أبي التحدّث ليس عن تدهور صحّته، بل عن رأسي. أخبرني أنّ الارتجاجات تستغرق وقتًا لتتعافى. نطقتُ الكلمة نُطقًا خاطئًا، وقالت أمي من خلفية المحادثة «قُلتِ إرجاج، والكلمة هي ارتجاج».

تمنّيت لو لم تذهب هباءً تلك الأيام القليلة التي توفّرت لي لمحادثتهما، لم أهاتفهما. لو فعلتُ لكنتُ لاحظت أنّ صحّته ليست جيّدة، أو على الأقل شعرتُ بذلك وإن لم يظهر عليه، أو لكنتُ أقنعته بالذهاب إلى المستشفى في وقتٍ أبكر. هذا هو كلّ ما أتمنّاه. الذّنب ينهش روحي. أتخيّل ما كان يجب أن يحدث لمنْع ما حدث في العاشر من يونيو بكلّ الطّرق التي يمكن للعالم أن يعيد تشكيل نفسه بها؛ أن لا يحدث بتاتًا. أنا قلقة على أوكي، هو شجاع، وروحه حسّاسة، ويحمل عبئًا مختلفًا عن ما نحمله، لأنّه الوحيد الذي كان هناك. يتألّم بشأن ما كان يفترضُ به فعله أيضًا تلك الليلة التي بدأ أبي يشعر فيها بأنّه ليس بخير. يقول له «ساعدني على الجلوس»، ثم ينصحه بأنّ الاستلقاء أكثر راحةً له. قال إنّ أبي كان يدعو بهدوء وسكينة؛ ما بدا أشبه بأجزاء من تسبيحٍ بلغة إيجبو. هل يُشعرني سماعُ ذلك بالرّاحة؟ أجل، قليلًا، فقط لأنّه أشعَر أبي بالرّاحة.

سبب موته هو الفشل الكلويّ. أخبرنا الطبيب أنّ عدوى ما فاقمت

مرضه الكلويّ المزمن. لكن أيّ عدوى تلك؟ شككتُ في فايروس كورونا بالطّبع. قبل أسابيع، زار بعض الصحافيين بيتنا لإجراء مقابلةٍ مع أبي، عن البليونير الذي أراد شراء أرض أسلافنا، الخلاف الذي أنهك أبي العامين الماضيين. ربّما تعرّض للعدوى حينها؟ يُخالف الطبيب ذلك، رغم أنه لم يُجرِ فحصًا لأبي. اعتقدَ أنّ الأعراض لا تتطابَق، إضافةً إلى خُلوّ من حوله من الأعراض. عانى جفافًا، ولهذا أدخِل المستشفى وحُقنت أوردته بالسوائل. في مستشفى تاتي، نزع أوكي أغطية سرير الغرفة، وأبدلها بأغطيةٍ جلبها من المنزل. في اليوم التالي، الحادي عشر من يونيو، كان موعد أبي مع أخصائي الكلى.

# 8

لأنني أحببت أبي جدًا، بعنف، بحنان، منطقةٌ ما من عقلي استشعرَت الخوفَ دومًا من مجيء هذا اليوم. لكنّ صحّته الجيّدة كانت تُهدئني، ما دفعني للظنّ بتوفّر الوقت. لم يحن أوان تلك الساعة بعد. أو كما يقول أخي كيني «أعتقد أنّ أبي سيعيش إلى التسعينيات من عمره». حملنا جميعًا الشعور ذاته. وربّما هو اعتقادنا غير المنطقي بأنّ كونه طيّبًا ومُحترمًا كفيلٌ بإبقائه معنا إلى تسعينيّاته. لكن هل شعرتُ بالحقيقة وأنكرتها تمامًا؟ هل أدركت روحي ذلك التوتر الذي انغرس كالمخالب في معدتي حين سمعت بأنّ أبي ليس على ما يرام، انعدام قدرتي على النوم ليومين، والظلام الذي حام حولي دون أن أستطيع تسميته أو التخلص منه؟ أنا القلِقة في العائلة، لكن حتى بالنسبة إلي، كان الأمر ثقيل جدًا. تمنّيت بشدّة لو أنّ مطارات نيجيريا مفتوحة، لأستطيع الطيران إلى لاغوس، ثم إلى أسابا، ثم أقود ساعةً حتى أصل إلى قريتي، وأرى أبي بنفسي. فقط لأتأكد. كنت متأكدةً من أنني قريبة جدا من أبي، دون رغبة في اختبار حقيقة ذلك، ودون انتباه منّي لتلك الرغبة. شيءٌ كهذا، تخشاه كثيرًا، ثم يصل أخيرًا من بين سيلٍ من المشاعر، لتعيش راحةً مريرة لا تُطاق. هذه الراحة تأتي عُدوانيّة، وتجلب معها أفكارًا غريبة شرسة. فليعرف أعدائي: حدث الأسوأ. رحل أبي. سيُزاح السّتار عن جنوني.

# 9

كيف تحوّلت حياتي إلى حياةٍ أخرى بتلك السرعة، كم هو قاسٍ هذا التحوّل، ورغم ذلك أجد أن تكيّفي كان بطيئًا. بعث إليّ أوكي مقطع فيديو لامرأة عجوز تبكي؛ تدخل من باب منزلنا الأمامي، وأفكّر: لابدّ أن أسأل أبي عمّن تكون. في تلك اللحظة القصيرة؛ ما كان حقيقيا خلال اثنين وأربعين سنة من حياتي، لا يزال حقيقيا. إنّ أبي لا يزال محسوسًا، يتنفّس، أستطيع الوصول إليه ومحادثته، ومشاهدة بريق عينيه خلف نظّارته. ثم، باستسلامٍ مرعب، أتذكّر. يبدو هذا النّسيان القصير خيانة ونعمة في آن. هل أنسى لأنني وحدي ولست معهم هناك؟ أعتقد هذا. أخي وأختي هناك، في مواجهة كآبة البيت دون أبي. تركع أختي بجانب سريره، وتبكي. أخي يرتدي قبّعة له، ويبكي. يرون أنّه لا يجلس إلى طاولة الطعام للإفطار، لا يجلس على كرسيّه وخلفه نور النافذة. لكان بعدها استلقى على الأريكة في قيلولة، ممارسًا بهذا طقوسه الصباحية، ثم يقرأ، ويأخذ قيلولةً أخرى. لو أنّني هناك فقط، لكنني عالقةٌ في أمريكا.

إحباطي مثل البثرة؛ أمسّدها بمتابعة الأخبار التي أتابعها عن موعد فتح مطارات نيجيريا. لا يبدو أن أحدًا يعرف، حتى السّلطات النيجيرية نفسها. صحفيّ يقول في يوليو، ثم أغسطس، ثم نسمع ربّما في أكتوبر، لكن وزير الطيران يُغرّد عبر تويتر «ربّما قبل أكتوبر». ربّما نعم، ربّما لا، كأنك تلعب «اليويو» مع قطّة، لكنّ الخازوق في هذا؛ هو ترك الناس دون اكتراث لعجزهم عن دفن أحبّائهم.

# 10

أتحاشى التعازي ما استطعت. الناس لطيفون ونواياهم طيّبة، لكنّ مشاعرهم تلك لا تُطفئ غضبي. أمقتُ الموت Demise؛ تلك الكلمة المُفضّلة لدى النيجيريين، التي تجلب لي معاني مشوّهة وسوداوية. عبارة «غياب أبيكِ»، أو «إنّه يرتاح» لا تبعث على الراحة، والسخرية في الأمر؛ أنّها تجد طريقها نحو الألم. كان يمكنه بسهولةٍ أن يرتاح في غرفته ببيتنا في آبا، والمروحة تبثّ هواءً دافئًا بجانبه، وحوله الصحف المطوية منثورة على سريره، وكتاب ألغاز السودوكو، ونشرة قديمة من جنازة، ورزنامة فرسان القديس مولومبا، والحقيبة الممتلئة بزجاجات أدويته، ودفتره المخطوط باهتمام والذي يسجل فيه كل شيء تناوله من أجل سجلّ داء السكريّ. عبارة «إنه في مكان أفضل»؛ مذهلةٌ في وقاحتها، ولها طابعٌ نافِر. كيف لك أنت أن تعرف ولا أعرف أنا، المفجوعة، لستُ أوّل من أدرك هذه المعلومة؟ هل وجبَ عليّ معرفة ذلك منك؟ «لقد كان في الثامنة والثمانين»؛ هذا مثيرٌ للغضب، لأنّ العمر لا علاقة له بالحزن، في قضيةٍ لا تتعلق بما بلغه من عُمر، بل بكم كان محبوبًا. نعم، لقد كان في الثامنة والثمانين، لكن هناك فجوة كارثية تتّسع الآن اتّساعًا مباغتًا؛ لتنفتح فجواتٍ أخرى في حياتك، جزءٌ منك خُطف للأبد. بعث لي صديق قديم رسالة «ما حدث قد حدث، لذا، احتفلي بحياته». أغضبتني رسالته. كم هو سهلٌ الوعظ عن «ديمومة الموت»، عندما تكون الحقيقة أنّ ديمومة الموت هي مصدر المعاناة. أتراجع الآن عن الكلمات التي قلتها في الماضي لأصدقاءٍ حزينين. كنت أقول «جِد السلام في ذكرياتك». أن يُخطف حُبّ منك، خطفًا مباغتًا، ثم يُخبرك أحدهم بأن تعود لزيارة ذكرياتك. وعوضًا عن العون، تأتيني ذكرياتي بطعناتٍ بليغة من الألم، تخبرني أنّ «هذا ما لن تملكه مرة أخرى أبدا». أحيانًا، تجلب الضحك، لكنه ضحك مثل فحم متوهّج؛ سرعان ما تشتعل فيه النيران من الألم.

أتمنى أن المسألة هي مسألة وقت وسيمرّ. أعتقد أنه من المبكّر أن نتوقع من الذكريات خدمتنا وتنفيذ ما نشتهيه فقط.

الكلمة البسيطة التي لا تبدو تحريضًا متعمَدًا للجروح هي «أنا آسف»، لأنها رغم بساطتها؛ لا تفترض نتيجةً مُسبقة. بينما كلمة Ndo التي تعني «آسف» في لغة إيجبو، تبدو مريحةً أكثر، ولها تأثيرٌ مادّي، وحدودٌ أوسع من مجرّد الأسف. أكثر ما يجلب الراحة؛ هي تلك الذكريات الملموسة والصادقة من أولئك الذين عرفوه، وأكثر ما أبهجني تكرار صفات بعينها: صادق، رزين، لطيف، قوي، هادئ، بسيط، مُسالم، نزيه. تخبرني أمي أنّ أيوجو اتصل بها ليخبرها أنّ أبي كان المدير الوحيد الذي لم يُسبّب له أيّ متاعب. أتذكر أيوجو؛ طويل وله أسلوب رقيق، هو سائق أبي حين كان يعمل مفوَضًا لنائب مستشار جامعة نيجيريا في الثمانينيَات. هل كان أيوجو، أم أنه ذلك السائق الآخر، كيفين، ذو الحيوية الساحرة؛ الذي قال عنه أبي ذات مرة بهدوء -عندما ألححتُ بعِناد طفلةٍ في السابعة، أنني أريد من السائق إيصالي إلى المدرسة -، «إنه سائقي، وليس سائقك».

 ٢٧٠٥٨١٨٦٥٨

# 11

الحزن ليس شفّافًا، بل ماديّ، مُستبدّ، شيءٌ مُبهم. يبلغ الثّقل أقصاه في الصّباحات، بعد النوم: قلبٌ مُكتئب، واقعٌ عنيد يرفض التزحزح. لن أستطيع رؤية أبي مُجدّدًا أبدًا. أبدًا. أشعر أني استيقظت فقط لأغرق، وأغرق أكثر. أصبح موقنة في مثل هذه الأوقات، أنني لا أريد مُواجهة العالم مرة أخرى. قبل سنوات، مات أحدهم، وقال قريبٌ لنا «يجب أن لا تبقى الزوجة وحدها». وخطر لي «لكن ماذا لو أرادت البقاء وحيدة؟»، هناك قيمة ما في طريقة إيجبو، الطريقة الإفريقية في مواجهة الحزن: الحداد الأدائي والتعبيري الظاهر، حين تستقبل كل اتصال وتحكي قصة ما حدث وتعيد سردها. حيث تكون العزلة لعنة، و«توقّف عن البكاء» تقاعُس. لكنني لستُ مُستعدّة. أتحدث فقط مع المقرّبين من عائلتي. نُفوري هذا غريزيّ. أستطيع تصوّر ارتباك بعض الأقرباء، ممانعتهم حتّى، عند تعاملهم مع انسحابي، الاتصالات التي لا أردّ عليها، والرسائل التي لا أقرؤها. ربّما يعتقدون أنّ هذا انغماسٌ مُحيّر في الذّات، أو أنّه تأثير الشّهرة، أو كلاهما. في الواقع، ابتداءً، هذا موقفٌ وقائي، إحجامٌ عن المزيد من الألم، لأنّ دموعي نضبت، ولكي أتحدث عن الأمر، فلابدّ لي من البكاء مرة أخرى. بعد ذلك، أصبح السبب أنّني أريد الجلوس وحيدةً مع حزني. أريد الاختباء والاحتماء؟ أختبئ ممّن؟ مِن هذه الأحاسيس الغريبة، هذه السلسلة المربكة من المرتفعات والمنخفضات. هناك حاجة يائسة للتخلص من هذا العبء، ثم التشوّف إلى تدليله وإبقائه قريبًا. هل من الممكن أن يكون الإنسان مُتملّكًا لآلامه؟ أريد أن أكون معروفةً لديها، وأن تكون معروفةً لديّ. كان ارتباطي بأبي ثمينًا جدًّا لدرجة لا أستطيع عندها الانفتاح على معاناتي لأتبيّن معالمها. يومًا ما، كنت في الحمام وحدي، ناديت أبي بلقبه الأثير لديّ «الأب الأصيل» the original dada، فغطّاني وشاحٌ من السلام. لفترةٍ قصيرة جدا. أنا إنسانة حذرةٌ

من العواطف الجيّاشة، لكنني موقنةٌ من أنّ هذه اللحظة ممتلئةٌ بأبي. لو كانت هلوسة فأريد مزيدًا منها، لكنها لم تحدث مجدّدا.

# 12

تقبع ملابس والديّ الشتوية في خزانة غرفة الضيوف، التي تُسمّيها ابنتي «غرفة جدي وجدتي». أتحسّس معطف أبي الزّيتي. خرائط ماريلاند محفوظة في الدرج، تماما كما يحتفظ بخرائط «نيو إنجلاند» في درجه في بيت أختي في كونيكتيكت Connecticut. خلال الوقت الذي يقضيانه هو وأمي في أمريكا سنويًا، يتدارس خرائطه الأثيرة: حدود المقاطعات، ماذا في الشمال أو الجنوب من ماذا، ويتتبّع كل رحلة، حتى لو كانت رحلةً لتناول الغذاء.

مشاهد من زيارة أبي الأخيرة: يمشي على الرصيف -تمرينه الصباحي اليوميّ- ليس نشيطًا كما كان (تباطأ مشيه وهرولته بوتيرة مُلاحظة في الرابعة والثمانين تقريبا)، وقرّر المحافظة على العدّ بالحجارة، وهكذا وجدنا كومةً من الحجارة أمام المنزل. يأخذ قطع البسكويت من المستودع، غير مبالٍ أو مُدرك لآثار الفُتات. يقف في مواجهة منتصف التلفاز، كانت هذه إشارته لـ «توقفو عن الكلام جميعا»، لمشاهدة ريتشيل مادو، التي كان ينعتها بالذكاء، بينما يهز رأسه على الفوضى التي صارت إليها أمريكا.

# 13

أعدت قراءة «سيرة أفضل بروفيسور للإحصاء في نيجيريا البروفيسور جيمس نويي أديتشي» لكتّابه الأستاذ الفخري أليكس أنيمالو، والأستاذ بيتر أ. أوتشي، وجيف أوناجبو، والتي نُشرت عام 2013، قبل تعيين أبي أستاذًا فخريًا لجامعة نيجيريا بثلاث سنوات. لم تكن الطباعة متساوية، بدت الصّفحات منحرفة قليلًا، لكنني كنت مُمتنَةً للمؤلفين. لِمَ استطاع تهدئتي ذلك السّطر من ثَناء أمي «الأطفال وأنا كنا نعشقه»؟ لِمَ أشعرني بالاطمئنان والتشريف؟ أشعرني وجوده بالرّضى، مُعلَنًا للأبد ومطبوعًا. أبحث في مكتبي عن رسائله القديمة التي أرسلها من نيجيريا حين جئت إلى أمريكا للدراسة، وحين وجدتها، ونظرت إلى خطه، انفعلتُ انفعالًا مفرطًا وشديدًا. خطّ يده يحكي قصته: النصّ المتعرّج؛ يحكي عن نوع معيّن من التعليم في المستعمرات الأفريقية، حذرٌ وسليم، مُحبّ للاتينية ومُتّبع للقواعد. كان يسمّيني Nnem Ochie؛ أي جدتي. يختم رسائله بـ «والدك» وتوقيعه. حتى أنه وقّع على بطاقات أعياد الميلاد، وأضحكنا هذا؛ أنا وإخوتي. كنا نقول له «إنها ليست مذكّرة جامعة يا أبي، ليس عليك توقيعها». بحثت في كل مكان عن الورقة التي رسم فيها شجرة عائلة تُظهر أربعة أجيال، لكنني لم أجدها، الأمر الذي آلَمني أيّامًا عدّة. الصناديق والملفات مطروحة أرضًا، والأوراق مُلقاة على كلّ جانب.

أنظر إلى صورٍ قديمة، ومن وقتٍ لآخر يتورّم جسدي كاملًا من البكاء. غالبًا ما يظهر أبي مُتصلّبًا في الصور، لأنّه كبُرَ في وقت كان التصوير فيه مناسبةً نادرة ورسميّة، يجب على مَن يعيشها ارتداء أفضل الثياب والجلوس، دون راحة، أمام رجلٍ لديه حامل كاميرا ثلاثي. أحاول أحيانا قرص رقبته. «أبي، ارتاح. أبي، ابتسم». أتذكر صورة التقطتها له، كان يجلس على طاولة الطعام الفوضوية في نسوكا Nsukka في سكن جامعة نيجيريا -المكان الذي كبُرتُ فيه- جالسًا على كرسيه، بجوار

كرسي أمي. المكان الذي بدأت فيه عادة المسح على الرأس. كنت في المرحلة الثانوية حين بدأت أول رقعة صلعٍ تظهر على رأسه، وكنت آتي من خلفه وهو جالسٌ على طاولة الطعام، وأمسح عليها، وكان هو، من دون أن يوقف ما كان يفعله أو يقوله، يصفع يدي بلطف.

أشاهد مقاطع فيديو محفوظةً على جهاز الكمبيوتر، أشعر أنها اكتشافات، لأنني لا أتذكرها، مع أنني صوّرت بعضها. كنّا نتناول الإفطار في بيتي في لاجوس، وتظاهرتُ بأنني صحفية نيجيرية تسأل أبي عن خطوبته من أمي، وكان يتجاهلني وابتسامة صغيرة تعلو وجهه. كنا ببيتنا في آبا، وكانت ابنتي ذات الثلاث سنوات تبكي، لأنها تريد اللعب بدلًا من تناول طعام الإفطار، وأبي يحتضنها ويخبر المربية أن تأخذ الطعام حتى تلعب.

# 14

وجدت في مكتبي كتب سودوكو قديمة، المربعات تملأها أرقام مستقيمة واثقة، أتذكر أننا اعتدنا السنوات الماضية زيارة متجر كتب في ماريلاند. اشترى لي كتاب سودوكو قائلًا «إنها جيدة جدا»، لكن تجربة التغلّب على اللغز الأوّل أحيا كرهي للرياضيات. أتذكر أبي مرّة وهو يشجّعني ويستذكر معي قبل الدخول إلى اختبار اجتياز الثانوية العامة، وكنت قد استغرقت وقتا طويلا لحلّ أحد أسئلته: «نعم، ستصلين إلى الإجابة. لا تُشكّكي في نفسك. لا تتوقّفي». هل من أجل هذا أؤمن الآن بالمحاولة دائما؟ نعم، بالطبع، تقديم الأعذار سهلٌ جدا. كان كماله ما شكّلني، لكنها تفعل ذلك أيضًا هذه الأحداث، قطعةً قطعة.

في المرحلة الثانوية، أخذنا -أصدقائي وأنا- مسألة رياضية إلى مدرّس الرياضيات الخجول، أستاذ أو، وبنظرةٍ خاطفة على المسألة الشائكة، قال باستعجالٍ إنه سيذهب لإحضار جدول الأشكال الأربعة الرياضيّ، رغم انتفاء حاجة المسألة إليه. غادرنا مكتبه تعتلينا سخرية المراهقين الخبيثة. أخبرت أبي بما فعلنا معتقدةً أنه سيضحك، لكنه قال «هذا الرجل ليس مدرّسًا جيدا، ليس لأنه لم يحل المسألة، بل لأنه لم يقل إنّه لا يعرف». هل لهذا أصبحت إنسانة واثقةً ثقة كافية لأقول «لا أعرف» حين لا أعرف فعلًا؟ علّمني أبي أنّ التعلّم لا ينتهي أبدا. لم يكن يملك إحساس الاستحقاق الذي امتلكه كثير من آباء إيجبو من جيله، الحقّ في امتلاك وقت ومال وجهد أبناءهم، والذي أعتقد أننا كنا سنتنازل له عنه على أيّة حال. لكن لأنه يحترم حدودنا بصرامة، ويمتنّ جدا لأصغر الأشياء، فقد جاء ذلك بمثابة جميلٍ لا يُقدّر بثمن. أُشيد به غالبًا بلقبه Odelu-Ora Abba والذي تقول ترجمته الحرفيّة «الذي يكتب من أجل مجتمعنا». وكان يُشيد بي أيضا، وإشادته بي تكون بإرسال رسائل حبّ مغمورة بالتشجيع. كانت Ome Ife Ukwu هي أكثر عباراته تكرارًا؛ «التي تفعل

أشياء عظيمة». أجد العبارات الأخرى يصعب ترجمتها: Nwoke Neli «التي تُعادل رجالًا كثيرين»، و Ogbata Ogu Ebie «التي حضورها يُنهي المعركة». هل كان هو سبب عدم خوفي رفضَ الرّجال؟ أعتقد هذا.

# 15

لم يكن أحدٌ مُهيّئًا للتعامل مع شدّة ارتباط أبي بلعبة السودوكو بعد تقاعده. ولا يقارن ذلك بغضب أمي من هذا الأمر. تقول «إنه لا يأكل، لأنه مشغول بلعب السودوكو». فيجيبها «السودوكو ليست لعبة، إنها ليست لودو». وكنتُ أسخر «جيمس وجريس؛ يتشاحنان منذ عام 1963». حين دخل أوكي غرفتها مساءً في العاشر من يونيو، وأضاء الغرفة ليخبرها بوفاة أبي، كانت أولى كلماتها «كيف يمكن حدوث هذا؟»، أسلوب النيجيريين لقول «لا يمكن، هذا مستحيل، ليس لهذا أن يحدث». ثم أضافت كلمات بثّت الخوف في قلوبنا في مكالمة الزووم تلك: «لكنه لم يخبرني بأي شيء». لأنّه كان ليخبرها قبل ذلك. لقد كانوا هكذا. إن كان سيتركنا للأبد، فلابد أنه قد أخبرها، ولأنه لم يخبرها، فلابد أنّ الأمر ليس صحيحًا. كانت للتوّ عادت من المستشفى قبل ساعات لتنال قسطا من الراحة، قبل العودة مرة أخرى من أجل موعد أخصائي الكلى في أونتيشا. قالت «لقد أخرجت معطفه في حال أنه شعر بالبرد». سحرتني قصة خطبتهما. بدأت في مزرعة عام 1960، وليس أحدٌ منهما حاضرًا. قريب له كان يُفاخر بالشاب اللامع الذي بدأ لتوّه التدريس في الجامعة وكان يبحث عن زوجة متعلّمة. قريبٌ لها قال إنها متعلمة وجميلة، بهيّة كطائر البلشون، بهيّة كطائر البلشون! O na-enwu ka ugbana! مزحةٌ أخرى مشهورةٌ في عائلتنا. كنتُ أثيره أحيانا؛ «أبي، هل يعني هذا أنك قُدت إلى مدينة لا تعرفها لترى فتاةً سمعت عنها؟». لكن هكذا كانت تتمّ الأمور. أحبّت أمي هدوءه. قاومت عائلتها ارتباطهما في بداية الأمر، لأنه لم يكن غنيا كبقية مَن تقدّموا لخطبتها، لكن أمي قالت إنّها لن تتزوج أحدًا غيره. أطلقتُ عليه «المُدافع عن زوجته»؛ لأنّه كان يثب سريعا لدعمها. حين كانت نائبة المُسجّل في جامعة نيجيريا، -وبعدها، أصبحت أوّل امرأة في منصب المسجّل- وفي إحدى المساءات، دخل أبي البيت فرحًا يُغنّي وهو

يفك رباط عنقه، ممتلئا بالفخر بعد خطابها في مجلس الجامعة. أخبرني أنا وإخوتي: «أمكم كانت رائعة».

# 16

أخبرني أوكي أنه أخفى ساعة أبي في جيبه تلك الليلة، وصوّرها لي. ساعةٌ فضّية ذات قاعدة زرقاء أهداه إياها كيني قبل سنوات. ابتهجنا لأن أبي ارتداها مباشرة. لطالما جلبنا له أشياء لم يستخدمها. كان يقول إنّ قميصه معه منذ عام 1970، وحذاءه معه منذ عام 1985، لا يزالان على ما يرام. لا أزال أنظر إلى صورة الساعة، يوماً بعد آخر، كما لو أنها زيارةٌ لمكانٍ مُقدّس. أتذكرها على يده، وأبي ينظر إليها غالبًا. هذه صورةٌ نموذجية لأبي: وجهه نحو ساعته، يتحقق من الوقت، رجلٌ شديد الدقّة. بالنسبة له، حضوره على الوقت هو ضرورة أخلاقية.

في طفولتنا، كان أبي جاهزًا في الدور السفلي صباح كلّ أحد، مُستعدًّا لحضور القُدّاس قبل أيّ أحدٍ بساعة، ويصعد حتى يستعجلنا وينزل. في تلك السنوات بدى بعيدًا عنّا. كانت أمي هي القريبة والمتوفرة للتواصل، وكان هو الرجل القابع في مكتبه يدوّن الإحصاءات ويتحدث إلى نفسه. كنت فخورة به فخرًا مُبهمًا. ربما لم أُدرك ذلك الوقت أنّه الأستاذ الأشهر للإحصاء في نيجيريا، لكنني عرفتُ أنه أصبح أستاذا قبل آباء أصدقائي بوقتٍ طويل، لأنّ أحد الأطفال في المدرسة ناداني بابنة الأستاذ Nwa Professor. في سنوات متأخرة من مراهقتي؛ بدأت برؤية مدى تشابهنا في الفضول وحُبّنا ملازمة المنزل، وبالتحدث إليه، وبأن أعشقه. والانتباه إلى أنه كان يُرعي انتباهه بإتقان، وإلى حضوره، وكيف أنه كان ينصت جيدا. إن أخبرته بشيءٍ فسيتذكره. وكلّما تقدّم في العمر؛ جفّ مرحه، يظهر حادًّا دون تعابير مسليّة.

# 17

تحكي لي صديقتي المُقرّبة أوجو، كيف أنّ أبي التفت إليها في نهاية كلمتي يوم التخرّج في هارفرد، عام 2018، وقال بصوتٍ عالٍ -لأنّه كان صامتًا خلال الحفل- «انظري، كلهم يقفون من أجلها». بكيت حين سمعت هذا. جزءٌ من طغيان الحزن؛ أنه يسلب تذكّر الأشياء التي تستحقّ التذكّر. فخره بي مهمّ، أكثر من فخر أيّ أحد آخر. قرأ كل شيءٍ كتبته، وتعليقاته كانت متنوعة بين «هذا ليس متماسكا على الإطلاق»، إلى «لقد تفوّقت على نفسك». حين أسافر لتقديم حديثٍ في فعاليةٍ ما، كنت أرسل له برنامجي، ويُراسلني ليطمئنّ على تقدّمي. كان يكتب شيئًا مثل «لابدّ أنكِ تستعدّين للصعود إلى المسرح»، أو «اذهبي وتألّقي!» -Ome ife ukwu! مرّة، كنت مسافرةً إلى الدنمارك، وبعد أن تمنى لي رحلة آمنة، أضاف بأسلوبٍ مُحايد «وحين تصلين إلى الدنمارك، ابحثي عن بيت هاملت».

# 18

تُكرّر قريبتي أوجي محاولاتها إثارتي بالسخرية قائلة: «عليكِ الزواج بأبيكِ». ربما لأنّ أحدَ أقرب الأشياء لي في الدنيا؛ أن أمضي الوقت رفقة أبي. أن أجلس معه ونتحدث عن الماضي؛ كاستعادة كنزٍ بديع كان ملكًا لي دائمًا. وهبني أجدادي في قصصٍ محبوكة بدقة. لم أكن أعشقه بالطريقة الكلاسيكية -الابنة والأب-، ولكنني أحببته جدا أيضًا. أحبه. جماله وحكمته وبساطته، وكيف أنه كان غير قابل للتأثر إطلاقًا. أحببت استنارته، وإيمانه المعتدل، راسخ؛ لكنه يعتنقه برفق. إن كنت تتوقع أن يُمضي أبي إجازة نهاية الأسبوع في أي مكان، فعليك أن تجد كنيسةً رومانية كاثوليكية. حين انتقلت إلى ماريلاند، كنت قلقة من أن تكون كنيسة القديس يوحنا الإنجيلي، بمركز الحوار بين الأديان في كولومبيا، والجوقة التي تعزف على الجيتار، مُنفّرةً له، فلا شيء يفضله كالزجاج الملون الكاثوليكي، لكنه وجد الكاهن «جيدا جدا»، ولحسن الحظ استمرَ يذهب إليها كلّ أحد. أحببت أنَ ردّة فعله تجاه أي سُلطة؛ كانت بهزّ كتفيه. كان يُبجّل النزاهة. لم يكن يبالي -إن لم يكن مُرتابًا- بالبهرجة الزائدة. تفاخر خطيب أختي الغني مرّة «أملك ثماني سيارات»، وردّ عليه أبي «لماذا؟».

لم يكن ماديا، وهذا لم يكن ذا أهمية لو أنه لم يكن نيجيريًا يعيش في نيجيريا، بواقع أعرافها الجشعة، وحب الامتلاك الطليق من أسفلها لأعلاها. كلنا كنا فاسدين بدرجات متفاوتة، لكنه الوحيد الذي لم يُصَب تماما. أحببت حسّه بالواجب. تشعر برحابة ما في طبيعة تكوينه، روحٌ تستطيع أن تتسع؛ استوعب الأخبار السيئة، فاوض، ساوم، اتّخذ القرارات، وضع القواعد، لمّ شمل الأقارب وأبقاهم مجتمعين. كثير من هذا كان نتيجة كونه الابن الأول في عائلة من إيجبو وارتقائه لمزيج توقعاتها وأحكامها. غرسَ المعاني في أبسط الأوصاف: رجل طيب، أبٌ طيب. كنت

أحب أن أصفه «رجل لطيف ونبيل».

أحببت أيضا تقديرَه للتصرفات المناسبة في المواقف. ودقته في حفظ السجلات، وترتيب الملفات في خزانته. لكلّ ابن له وابنة ملفٌ لأوراق مراحله التعليمية الابتدائية، والثانوية، والجامعية؛ وكل خادمة عاشت في منزلنا لها ملف. مرّة، التفتَ نحوي خلال مشاهدة نشرة الأخبار الأمريكية، وسألني عن كلمة اختصرها مُقدّم النشرة، كانت كلمة نووي Nuke، وحين أخبرته بمعناها، قال «الأسلحة النووية أكثر جدية من أن تُعطى ألقابًا».

يخبرني زوجي بأنّ لي ضحكة مختلفة حين أكون مع أبي، «حتى حين لا يكون ما يقوله مضحكا». أستطيع تمييز تلك النبرة الحادة التي يستخدمها، وأعرف أن الأمر لا يتعلق بما يقوله، بل بكوني معه. ضحكةٌ لن أستطيع إطلاقها للأبد مرة أخرى. الأبدية أتت لتبقى. تبدو الأبدية عقابا غير عادل. لبقية حياتي، سأعيش مع يدَيّ الممدودتين للوصول إلى أشياء لم تعد موجودة.

# 19

في عيد الميلاد الماضي، خلال حفل الترحيب المنزلي بانتقال أختي إيجيوما إلى بيتها الريفي، كان أبي كبير العائلة ومحطّ الأنظار، يجلس وسط غرفة المعيشة، يبارك جوز الكولا Kola nut، يرتشف قليلًا من الشراب، رغم أنه بالكاد يشرب، ويحكي القصص. وصل بعض الأقارب وتوجهوا إليه مباشرة لتقديم احترامهم له. وصلته رسالة على **الواتساب** في الظهيرة، لكنه لم يقل شيئا عنها حتى عدنا إلى البيت مساء. أعطاني هاتفه وأخبرني «اقرئي هذا. يبدو أن هذا الرجل جُنّ فعلا».

«هذا الرجل»، كان البليونير الذي يريد الاستيلاء على مساحة شاسعة من أرض أجدادنا التي تعود إلى مسقط رأسي؛ آبا. قطعة الأرض هي أساس تكوين إيجبو، ومن يمتلك قطعة أرض عادة هو من يروي القصص: أجداد مَن زرعها، وأي قبيلة من السكان الأصليين، وأيّها مهاجرة. الأرض أيضا كانت شوكةً في الكثير من النزاعات، أعرف عائلات ممتدة تقطّعت علاقاتها بسبب نزاعات على قطعة أرض لا يتّسع حجمها لإيقاف سيارة. الأرض المُتنازع عليها زُرعت علي أيدي أبناء آبا لعقود، لكن، بنهاية حرب بيافرا، وبسبب الفوضى التي أحاطت بأرض إيجبو، انتهى نظام قديم ولم يتكوّن نظام جديد بعد، وفجأة ادّعت المدينة المجاورة لنا أنّ الأرض لهم. ذهبت آبا إلى المحكمة، والقضية مقيدة منذ سنوات. اعتقد كثيرون في آبا أنّ هذا البليونير كان مسؤولا عن الاعتقالات والاحتجازات التعسفية للقرويين، لتخويف المدينة وحثّهم على التخلّي عن القضية التي يطالبون فيها بالأرض. جُرف سوق. هُدمت جدران المجمّع. عارَض شقيقه هذه الادّعاءات في مقابلة له مع صحيفة الغارديان. لا يوجد أحدٌ في آبا يملك الثروة أو الروابط التي يملكها البليونير، لكن كان هناك رجل أعمال مستقيم، إيكيمبا نجيكوكا، تولّى المصاريف القانونية وتحدث علانية عن تصرّفات البليونير. هو نفسه تعرّض للتهديد. رسالة الواتساب

التي جاءت إلى هاتف أبي، أعيد توجيهها من هاتف إيكيمبا، كانت تقول «أنت» ستُعتقل في دار البلدية هذا الأسبوع. لم يكن أبي مُلمًّا بالواتساب، ولم يدرك أنّ هذه الرسالة مُعادٌ توجيهها واعتقدَ أنّه سيُعتقل اعتقالًا تعسفيًا. أمضى اليوم صامتًا، مُثقلًا بهذا. قلت «كان يجب عليك قول شيء يا أبي»، وأجابني «لم أرغب في إفساد يوم إيجيومي».

أغضبني أنّ شهور أبي الأخيرة أفسدتها تصرّفات رجل ضئيل حقير يدّعي الإنسانية، ثمل بثروة النفط ومُجرّد من أيّ وازع. يغضبني كيف قلقتُ على سلامة والديّ، خصوصا في نهاية 2019 حين أطلق البليونير حملة وقحة ضد مدينتي. «هذا خطأ»، ذاك ما كان أبي يقوله طوال الوقت، برجفةٍ أخلاقية، كأنه يستغرب تصرُّفَ بليونير ثريّ من نيجيريا. حين يتعلق الأمر بسوء الممارسة، فتلك ظاهرة شائعة وعادية في نيجيريا. وكانت كل حادثة مثلها تبثّ الرّعب في أبي. كان بسيطًا؛ بريئًا إذا تعلّق الشّأن بالعدالة. حين فاجأناه أنا وإخوتي في عيد ميلاده الثمانين، أتينا من أمريكا وبريطانيا، ظلّ ينظر إلى أمي لأنّها استطاعت الكذب عليه. قال لها «لكنك قلت إنّ بعض الأصدقاء سيأتون، لم تقولي أنّ أبناءنا سيأتون». ونقول له «لا يا بابا، لم يكن مسموحًا لها أن تخبرك. إنها مفاجأة».

# 20

قالت ابنتي ذات الأربع سنوات «جدتي حزينة لأنّ جدي مات». «مات». إنها تعرف كلمة «مات». تسحب مجموعة من المناديل من الصندوق وتناولني إياها. يقظتها العاطفية فاجأتني وأثارت إعجابي. سألتني بعد أيام «متى يستيقظ جدي مرة أخرى؟». بكيت طويلا، تمنيت لو أنّ فَهمها للعالم حقيقي. لم يكن هذا الحزن مطلقًا حول استحالة العودة.

كنت أشاهد مقطع فيديو على هاتفي لأبي ذات صباح، وانتبهت ابنتي لشاشة هاتفي، فمدّت يدها لتغطية عيني، وقالت لي «لا أريدك أن تشاهدي مقطعا لجدي، لأني لا أريدك أن تبكي». سألتها «هل ستتذكرين دائما ما كان يطلق عليكِ جدك؟». أجابتني «نعم يا ماما، Ezigbo nwa. طفلة طيبة، ترجمة غير ملائمة بسبب حرفيّتها.» سأخبرها عن مدى سعادته بها، الحفيدة الثامنة، كيف كان سعيدا لأنها تربّت وهي تنطق بلغتين، وكيف كنّا أنا وزوجي نتمازح حول غضبه حين نضايقها.

مشهدٌ من الشهور الأولى لابنتي: أبي يصعد الدرج بسرعة، ابنتي الرضيعة تبكي وهي مع أمي في الدور السفلي. أُرسل أبي ليجلب مصاصة مُسكّنة، ولا يتذكر ما يُطلق عليها، لذا أشار لي إلى فمه بسرعة وهو يقول «سدّادة الفم!». بعد أشهر، نجحت ابنتي في تدريبها على استخدام المبولة، وأقنعناها بلطف أن تجلس عليها وتفعل أكثر من مجرد التبوّل، جمهور كبير من العائلة يشاهدها، وأبي يتجوّل ويتساءل «هل سيفعلها أحدكم لو كان هذا العدد من الناس يراقبه؟».

# 21

من قواعد ثقافة إيجبو؛ هذا الانتقال السريع من الألم إلى التخطيط. بالأمس كان أبي معنا في اتصال زووم، واليوم نحن، في هذا الاتصال دونه، ويُفترض بنا أن نُخطّط. التخطيط هو استرضاءٌ لذات الكنيسة والجماعات التقليدية وتحصُّل موافقةٍ على تاريخ الدفن، وهو ما يستحيل حدوثه خلال مهرجان اليام الجديد أو أي احتفال مجتمعي آخر، ويجب أن يكون يوم جمعة، لأنّ كاهن الكنيسة لا يدفن كبار السن إلّا أيّام الجمعة. لكن الشيء الأكثر أهمية هو التصفية Clearance. كلمة لها معنى مختلف في اللغة الإنجليزية. تصفية الحسابات تشهد على عُمق ثقافة الجماعات في إيجبو وقوّتها. تصفية الحسابات تعني أنّ أي دَينٍ مُستحق لفئة عمرية، اتحاد البلدة، القرية، العشيرة، أو جماعة الأبناء the umunna، لابدّ من دفعه، وإلاّ ستُقاطَع الجنازة. تهديدٌ فعّال؛ أن تُهجر الجنازة. لأغلب أهل إيجبو، على الأقل لجيل أبي، الحرمان من جنازة مناسبة هو خوفٌ شبه وجوديّ. من الشائع سماع قصص عن عائلات حزينة، غاضبة من تلاعب جماعات القرية التي تطلب المال، هذه فرصتهم الوحيدة لممارسة سلطتهم التافهة. كان أبي مواظبا على سداد ديونه، وكان أوكي يتنقّل مسرعا ليجلب الإيصالات. هناك قائمة طويلة بجميع ما تتوقعه كلّ مجموعة منّا: مجموعة الفئة العمرية، جماعة البنات umuada، رابطة نساء القرية التقليدية، المجموعات الكاثوليكية، مجلس الرؤساء، الخرّاس الذين يحرسون القرية. عدد حافظات الأرز، ما لو كنا سنقدّم الدجاج أو الماعز، وعدد صناديق البيرة. أنظر إلى القوائم بازدراء. إنه ليس حفلا لعينا! لا أهتم بما سنلبسه، أو بما سيقدمه مُقدّمو الطعام، أو ما المجموعة التي ستحضر أو لا تحضر، لأنني لا أزال أغرق. لكن يجب عليّ أن أهتم، لأنّ هذه الأشياء كانت مهمة لأبي. ويحاول أخي تشاكس شدّ أزري «فكري بما كان أبي ليريده».

Telegram:@mbooks90

توفي جدي أيّام حرب بيافرا، في مخيّم لاجئين، ودُفن في قبر ليس له علامة، وأول شيءٍ قام به أبي بعد انتهاء الحرب هو أنّه نظّم مراسم جنازة متأخرة. ولهذا أحاول تذكير نفسي أنّ أبي كان ليريد أن تُنجز الأمور كما يجب. ولدت أختي إيجيوما وأخي أوشي حين كان أبي في بيركلي في الستينيات، قرّر هو وأمي أن يتحدثا معهما بلغة إيجبو فقط. أخبرني «نعلم أنهم سيتعلمون اللغة الإنجليزية، ولم نكن نتخيل أنّ أطفالنا لن يتحدثوا بلغتنا». ترعرعنا أنا وإخوتي ونحن نملك حِسّا قويا بهويتنا كإيجبو، وإن كان في الأمر فَخر؛ فإنه فخرٌ فطري لا مفرَ منه، لدرجة أنه لم يكن من الضروري تسميته فَخرًا. فقط كنّا. هناك أشياء كثيرة جميلة في ثقافة إيجبو، وكثير مما أختلف معه، وليست طبيعة إيجبو الاحتفالية في الجنازات هي ما أكره، بل كيف يجب أن يكون توقيتها قريبا. أحتاج إلى الوقت. في الوقت الحالي، أحتاج العودة إلى رشدي: أرسل إليّ صديق بسطرٍ من روايتي: «كان الحزن احتفالًا بالحب، أولئك الذين يشعرون بالحزن الحقيقي؛ محظوظون لأنّهم أحبّوا». أوجعتني قراءة كلماتي.

# 22

كنّا مُتخبّطين في مكالمات زووم، غير مستعدين، غير مُطّلعين على الأمور العمليّة. كان أيضًا تخبّطًا عاطفيًا. كنا دوما محظوظين، كوننا سعداء، كوننا مُحاطين بالأمان في أسرة مترابطة، ولهذا لم نكن نعرف كيف نتعامل مع هذا التمزّق. حتى الآن، وجدتُ الحزن من نصيب الآخرين. هل يجلب الحب –حتى لو من غير وعي- الغطرسة الواهمة في توقّعنا بأن الحزن لن يمسّنا؟ لقد تعثّرنا، وانحرف مسارنا من الابتهاج الشديد إلى السلبية العدوانية، إلى الجدال حول المكان الذي سيُخدم فيه الضيوف. أصبحت السعادة ضَعفًا لأنها تتركك أعزلَ في مواجهة الحزن. وهذه شهادة لوالديّ؛ أن يشعر كلّ منّا نحن الستة شعورًا خاصًا وحميميًا بأنه مميّز ومحبوب. ولهذا، كان تعامل كل واحدٍ منّا مع الحزن مختلفًا. "الناس يتعاملون مع الحزن بطرقٍ مختلفة"؛ من السهل على العقل استيعاب هذا، لكنه أمر يصعب أن يتعامل معه القلب. بتّ أرتاع من مكالمات الزووم، المظلّلة. لقد تغيّر شكل العائلة إلى الأبد، ولا شيء يخفف حزن هذا الأمر؛ بقدر تحريكي شاشة هاتفي دون رؤية المربّع الذي عليه كلمة «أبي». تقول أمي إنّ بعض الأرامل أتوا إليها لتذكيرها بالتقاليد. أوّلًا؛ على الأرملة حلق شعرها كاملًا، وقبل أن تُكمل، قاطعها أخويَ فورًا لإخبارها بأنّ هذا الأمر سخيف ولن يحدث. قلت إنّه لا أحد يحلق شعر الرجال حين تموت زوجاتهم، لا أحد أبدًا يُرغم الرجال على تناول الطعام البسيط أيّامًا، لا أحد يتوقع وضمَ أجساد الرّجال بالفقد الذي واجهوه. لكن أمي تقول إنّها تريد أن تفعل كل هذا: «سأفعل كل ما ينبغي. سأفعله من أجل أبيكم».

# 23

تخيّل الخوف من الدّفن، مع ذلك تتوق لانقضاءه. اتّفقنا على موعد، الرابع من سبتمبر، والكاهن كان لطيفا ووافق على تقديم التأبين. ستكون مراسم متوافقة مع إجراءات **كوفيد**: كمّامات الوجه سيُلزَم بها الحضور، وسيُخدم الضيوف في عدّة منازل من منازل الجيران، لتحقيق قواعد التباعد الاجتماعي. أنا سأكتب الدعوات. كتابة كلمة «جنازة» أمر مستحيل بالنسبة إليّ. صديقتي أوجو تكتبها نيابةً عنّي، لأنني، أولًا لا أستطيع. لكن قبل يوم من طباعة الدعوة، جرت شائعات عن أنّ مطارات نيجيريا لن تُفتح في أغسطس. الأخبار عشوائية، حتى أبسط الأمور لا يمكن تنسيقها، وهو أمر مُربكٌ؛ لأنّ المطارات مفتوحة في الدول المجاورة.

نيجيريا، كالعادة، تُبالغ في تصعيب كل شيء. عدم الأهلية متعدّدة الدرجات، منحدرة، مؤثرة، مُلطّخة ببريقٍ شيطاني. إحدى ركائز حياتي؛ كانت خيبة أملي بمسقط رأسي، لكن عداءً بهذه القسوة كان جديدًا علي. شعرت بشيءٍ لم أشعر به سوى مرة واحدة قبل هذا، حين أختطف أبي في 2015 بعد تنسيق بين سائقه ومجموعة ما، وطلبوا أن تدفع ابنته المشهورة الفِدية. من بين كلّ الرجال الذين ألقوا به في صندوق سيارة وتركوه في الغابة ثلاثة أيام، لم يُلقَ القبض إلا على السائق. لم أكن أكثر امتنانا لجنسيته الثنائية (نيجيرية – أمريكية) من ذلك الوقت، بفضل أخواتي اللاتي وُلدن في أمريكا، كما وُلدتُ أنا بعدها. كانت الحكومة النيجيرية كسولة، بينما اتصل السفير الأمريكي ونظر في الأمر، وأرسل مستشارًا ومُحقّقًا، الذي أرشد أمي إلى كيفية التحدّث مع الخاطفين. وبعد أن ألقى أوكي حقيبة مليئة بالنقود تحت شجرة في منطقةٍ معزولة، أُطلق سراح أبي. مهزوزٌ لكنه هادئ، تلك الرحابة المعتادة منه تظهر من جديد.

أخبرني أنهم لم ينطقوا اسمي بطريقة صحيحة، «فأخبرتهم بالطريقة الصحيحة لنطقه». لم يبدُ عليه الضّيق إلا حين أخبرنا أنّ الخاطفين أخبروه أنّ أبناءه لا يُحبّونه، وكيف ردّ عليهم «لا تقل هذا، هذا غير صحيح، لا تقل هذا عن أبنائي». بعد حادثة الاختطاف، قال أبي إنه لم يعد يستطيع العيش في نوسوكا؛ أراد الانتقال للعيش في القرية، مسقط رأس أجدادي في آبا.

«لا أريد أن أكون على هذا الطريق مرّة أخرى أبدًا»، هكذا قال عن الطريق الغائر المتصدع الذي قطعه فيه خاطفوه، وتظاهر فيه سائقه بالصدمة، حين أوقف السيارة. أخرج الاختطاف ضعفا جديدا فيه، ضعفا عاريًا لم يخفِه. مع ضعفه هذا، حضر عناد رجل عجوز، والشراسة العارضة، التي أزعجتنا أحيانا لكنها أبهجتنا غالبًا.

وهكذا كان الرابع من سبتمبر مستحيلًا. أعلنت الحكومة النيجيرية أنّ المطارات ستُفتح في نهاية أغسطس، وعادت أمي إلى الكنيسة لتحصل على موعدٍ جديد. أصبح الآن التاسع من أكتوبر. في اليوم التالي أعلنت الأخبار أنّ فتح المطارات تقديريّ؛ ربما نعم وربما لا. أمي يائسة للحصول على تاريخ مؤكّد للدفن. تقول أمي "يمكن لنا أن نبدأ في التعافي بعد الدّفن". يؤلمني قلبي لرؤيتها تبدو شجاعة ومستنزفة في آن.

# 24

الانتظار، وعدم المعرفة. مستودع الجثث في شرق غرب نيجيريا ممتلئ بسبب أنّ فايروس كورونا أخّر الجنائز. يُفترض بهذا المستودع أنّه الأفضل في ولاية آنامبرا، لكن لا يهمّ. لا تزال الزيارة واجبة عليك، وستدفع غالبًا بعض المال للمتعهّدين، هناك قصصٌ مرعبة لأحبّاء أُخرجوا من مستودع الجثث وقد أصبح التعرف عليهم مستحيلًا. يذهب أوكي كل أسبوع ليطمئنّ على الأمور ويتجدّد جرحه. كما لو أنّه يشهد كلّ أسبوع هذا التغيّر العنيف والمُمجوج. يجب أن أُعدّ نفسي للاستماع. أو لا أريد أن أسمع. أقترح عليه «ربما ينبغي عليك الكفّ عن الذهاب؟». «فلنُحضر أحدا ليس قريبا لنا ليذهب بدلا عنك». ويجيبني أوكي «سأذهب كلّ أسبوع حتى نستطيع دفنه بسلام. كان أبي ليفعل هذا من أجلنا».

# 25

ذات ليلة؛ عاد أبي في حلمٍ مشرقاً. يجلس على أريكته المُعتادة بغرفة المعيشة في آبا، وفي وقتٍ ما أصبحت غرفة المعيشة في نوساكا. ارتكب المشفى خطأ. ماذا عن زيارات أخي أوكي للمشرحة؟ قد يكون أيضًا أخطأ في تحديد الهوية. أطير من الفرح، لكنني قلقة من أن ذلك مجرّد حُلم، لهذا، في الحلم، أصفع يدي لأتأكد من أنه ليس حُلمًا، وأبي لا يزال جالسًا هناك يتحدّث بهدوء. استيقظت بألمٍ مُحيّر يملؤ رئتي. كيف يمكن للاوعيك أن ينقلب عليك بهذه القسوة؟

# 26

تحكي لنا أمي قصّةً لأبي، حدثت خلال الثمانينيات في بيتنا في نسوكا، حين قفز مندفعًا من الحمام مُبلّلًا، إلى مكتبه، لأنه اكتشف حلّ مُعضلة رياضية. أحبّ العالم الأكاديمي، لكن ليس جانبه السياسي. حكى لي «حين عُيّنت في منصب نائب نائب رئيس الجامعة، لم أطق صبرا كي أترك تلك النزاعات وأعود للتدريس مرة أخرى». درس أبي الرياضيات في جامعة إبادان، جامعة رائدة في نيجيريا، والتي انتسبت فيما بعد لجامعة لندن. ثم ذهب إلى بيركلي لمرحلة الدكتوراة في الإحصاء، إثر حصوله على منحة دراسية. شعر أنّ تدريبه البريطاني يخالف الطريقة الأمريكية. شعر بالاضطراب. كان قد قرر ترك البرنامج والعودة إلى نيجيريا، لكن المستشار الدراسي، إريك ليمان، شجعه، وأخبره أنه هو أيضا اضطر للمجيء إلى الولايات المتحدة بخلفية تدريبية بريطانية. قال عنه أبي دائما إنه «رجل لطيف جدا». رجل لطيف جدا، يُعجَب برجل لطيف آخر. دُعي هو وأمي إلى العشاء مرّة في بيت ليمان، وكانوا يلبسون رداءً نيجيريا

abada، وفي الطريق، قابلهم طفل وأشار إليهم قائلًا «إنه يلبس لباسًا مُضحكا». كانت القصة لا تزال مُسلّية لأبي حتى بعد مرور عقودٍ على حدوثها.

عاد هو وأمي وأختي إلى نيجيريا قبل بدء حرب بيافرا بفترة قصيرة. أحرق الجنود النيجيريون كتبه كلّها. أكوامٌ من الصفحات المتفحمة في الفناء الأمامي لبيت والديّ، حيث كانوا يومًا ما يزرعون الورود. بعث إليه زملاء من أمريكا كتبا بدلا من تلك التي فقدها، حتى أنهم أرسلوا إليه أرففًا أيضا. أخبرني أبي مرّة عن احترامه الكبير لعالم الرياضيات الأفريقي-الأمريكي ديفيد بلاكويل. هناك شخصية في روايتي "نصف شمس صفراء"، لرجل يفقد كتبه في حرب بيافرا، وثبعثُ له كتبٌ من

أمريكا، برفقة ملاحظة كُتب فيها «إلى الزميل الذي سلبته الحرب، من زملائك المعجبين بديفيد بلاكويل، باسم أخوّة الرياضيات». لا أتذكر الآن إن كنت اختلقت هذا السّطر، أم أنّ أبي وصلته ملاحظة مُماثلة فعلا. ربما اختلقت هذه الملاحظة، حين كنت مأخوذة بتلك الصورة لأكاديميّين في أمريكا، تجمّعوا لمساندة أبي، الزميل الذي سلبته الحرب.

في عام 1984، درّس أبي في جامعة سان دييغو، وتحدّث بإعجاب عن صديقه تشاك بيل، الأكاديمي الأفريقي-الأمريكي الذي ساعده على الاستقرار. روى لي أبي مرّة أن تشاك كان في شقته، وحين فتح تشاك الثلاجة ليأخذ شيئا يشربه، رأى قفصا من البيض وصاح «جيم!»، تنبّه أبي وسأل ماذا حدث؟ وأجابه «يجب ألاّ تأكل البيض. سيقتلك. كوليسترول كثير. يجب أن ترمي بها الآن».

حكى أبي هذه القصة بسخرية، كما لو أنه يقول «من بين كل الأشياء؛ يقول لي لا تأكل!»، و«مَن يعلم ما الذي سيخترعه الأمريكان بعد هذا!». وكنت دائمًا أقول له وهو يُقشّر بيضة مسلوقة خلال طعام الإفطار، أو يضع ملعقة من صلصة البيض على شريحة من البطاطا الحلوة: «يجب ألّا تأكل البيض».

رأيت أبي آخر مرة في الخامس من مارس، مباشرة قبل أن يغيّر فايروس كورونا العالم. ذهبنا أوكي وأنا من لاجوس إلى آبا. قلت لوالديَ «لا تخبروا أحدا أنني قادمة»، تجنبًا للزوّار. «أريد إمضاء إجازة نهاية أسبوعٍ طويلة معكما فقط».

تصيبني صور تلك الزيارة بالبكاء. الصور التي التقطناها لنا جميعا، قبل أن نرحل؛ أوكي وأنا. أبي يبتسم، ثم يضحك، لأن أوكي وأنا نبدو سخيفين. لم أنتبه لهذا. خطّطت للعودة في شهر مايو لزيارة أطول، لكي أتمكّن أخيرًا من تسجيل بعض القصص التي رواها لي عبر السّنين؛ عن جدته، وأبيه، وطفولته. كان سيريني مكان شجرة جدته المقدسة. لم أكن أعرف شيئا عن هذا الجزء من تكوين إيجبو: أنّ بعض السكان اعتقدوا أنّ شجرةً مُميّزة، يُطلق عليها أوجبو تشي Ogbu chi هي مخزن لطاقة تشي، أي أرواحهم الخاصة. جدّي لأبي؛ اختطفه بعض أقربائه في شبابه، وأخذ ليُباع في سوق العبيد في آرو، لكنهم رفضوه بسبب تقرّح كبير على ساقه، قال أبي عنه؛ إنه كان يمشي بعرجةٍ خفيفة، وحين عاد إلى البيت ورأته أمه، صرخت وبكت، وانطلقت تجري نحو شجرتها لتمسح عليها وتشكر طاقة تشي لأنها حفظت ابنها.

ماضي أبي مألوفٌ عندي بسبب القصص التي قصّها وأعاد قصّها، لكن رغم هذا، فإنني أنوي تسجيلها بطريقة أفضل، أسجّل صوته يرويها. كنت أخطط لهذا دائما، ظانّة أنّه لا يزال لدينا مُتسعٌ من الوقت. أقول «سنفعل هذا المرة القادمة يا أبي»، ويجيب «حسنا، المرة القادمة». هناك إحساس مخيف بالانسحاب، بانزلاق أجدادنا، لكن على الأقل عندي ما يكفي لصنع أسطورة، إن لم تكن ذكرى.

# 28

في الثامن والعشرين من مارس، توفيت أخت أمي الصغرى كارولين، خالتي المُفضلة، فجأةً إثر تمدّدٍ للأوعية الدموية في الدماغ، في مستشفى بريطاني كان قد أغلق بسبب فايروس كورونا. امرأةٌ مرحة. بُوغتنا بالحزن. قرّب الفايروس إمكانية الموت وشيوعه، لكن كان هناك ما يشبه السيطرة؛ لو أنّك بقيت في المنزل، لو أنّك غسلت يديك. بموتها، رحلت فكرة السيطرة. يمكن للموت الاندفاع نحوك في أي يوم ووقت، كما حصل معها. كانت على ما يرام، ثم في لحظة زارها صداع شديد، ثم رحلت. وقتٌ ازداد ظلامًا بلا هوادة. عاشت مع والديّ أعوامًا عدّة قبل ولادتي، وبالنسبة لأخواتي، كانت أختًا كبرى لهم أكثر من كونها خالتهم. أنظر الآن إلى الوراء، وأتذكر أبي يصف موتها بأنه صادم، كان صوته متوترًا بفعل تلك الصدمة، وأنا أتخيل الكون يتآمر ويعزز شرّه. في يونيو، سيرحل، وبعدها بشهر، في الحادي عشر من يوليو، ترحل عمتي ريبيكا أيضا، مُنكسرًا قلبها على فراق أخيها الذي كانت تتحدث معه كلّ يوم، وفي المستشفى نفسه الذي توفي فيه أبي. اندفاعٌ خسيس لفيضانات تركت عائلتنا مشوّهة ومتآكلة إلى الأبد. طبقات الخسارة تجعل الحياة تبدو هشة ورقيقة.

# 29

لماذا تُبكيني صورة فراشتين حمراوين مطبوعة على قميص؟ لا ندرك طريقتنا في الحزن؛ حتى نحزن. لا أحب القمصان، لكنني أمضي ساعات على المواقع التي تصنعها بحسب الطلب، أصمّم القمصان لأحيي ذكرى أبي، أجرب الخطوط والألوان والصور. أضع توقيعه على بعضها JNA، وعلى بعضها كلمات من لغة إيجبو omekannia أو oyilinnia ذات المعنى المتقارب، كلاهما نسخة من «ابنة أبيها»، لكن أكثر ابتهاجًا وفخرًا.

هل شكّل أيّ قميصٍ مهربًا؟ غالبًا أتوقف لأبكي، وأفكّر ما هو رأيه فيهم. عرف اهتمامي بالأزياء وتقبّله بسرور، خصوصا خياراتي غير التقليدية. قال مرّة عن بنطالٍ منفوشٍ لبسته في إحدى المناسبات، "يبدو هذا كأنه لباس تنكّري" Nke dike mmuo. ربما لا تكون كلمة "تنكّري" هي التي سأختارها، لكنني فهمت وجهة نظره. قد يتقبّل بعض هذه القمصان، أعتقد ذلك. التصميم بمثابة علاج، يملؤ الصمت الذي اخترته، لأنّه يجب عليّ تجنيب أحبائي أفكاري المُكدّرة التي لا تنتهي. يجب أن أُخفي قوة قبضة الحزن الحديدية علي. أخيرا فهمت لماذا يحصل الناس على وشومٍ لأولئك الذين فقدوهم. الحاجة إلى إعلان الحب والاستمرارية؛ لا الحزن. أنا ابنة أبي. إنه فعل مقاومة ورفض: الحزن يخبرك بأنّ الأمر انتهى، وقلبك يخبرك بأنّه لم ينته، يحاول الحزن تحجيم حبك للماضي، وقلبك يقول إنّ الأمر لا يزال في الحاضر.

لا يهمّ لو أنني أريد التغيّر، لأنني تغيّرت فعلًا. صوتٌ جديد يُظهر نفسه من خلال كتابتي، ممتلئ بالقرب الذي أشعر به نحو الموت، بالوعي بفنائي، واضح بدقّة، حادّ جدًّا. إلحاحٌ جديد. عدم الدوام في الجو. يجب عليّ أن أكتب كل شيءٍ الآن، لأنه لا أحد يعلم الوقت المتاح لي. يومًا ما، بعث إليّ أوكي رسالة «أفتقد مرحه الجاف، وكيف يرقص رقصته

الصغيرة المرحة حين يكون سعيدا، وكيف كان يُربّت على الخد ويقول لا عليك»، ويفزّ قلبي. بالطبع أتذكر كيف كان أبي يقول دائما «لا عليك»، ليجعلنا نشعر بتحسّن تجاه أمرٍ ما، لكن أن يتذكره أوكي أيضا؛ يجعل الأمر يبدو جديدا. من عناصر الحزن الفظيعة؛ ولادة الشك. لا، أنا لا أتخيل هذا. نعم، كان أبي رائعًا حقا.

Telegram:@mbooks90